

الشكر □ وأثره في سعادة الأُمم



عرّف العلماء الشكر □ بأنّه: ظهور أثر نعمة □ على لسان عبده ثناء واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة.

فالشاعر من يكون لسانه مشغلاً بالثناء على ربه معترفاً له بنعمه، ويكون قلبه مملوءاً محبة □ على هذه النعم، وشهوداً بأنها منه فضل وإحسان، وتكون جوارحه مشغلة بطاعة □ استسلاماً له وانقياداً.

لهذا كان الشكر من مظاهر العبادة التي التي دعا إليها القرآن، قال □ تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (البقرة/ 172).

"وكلمة الشكر من الكلم الجوامع التي تنتظم كل خير وتشمل كل ما يصلح به قلب الإنسان ولسانه وجوارحه. فالذي لا يحب □ ولا يشهد قلبه بأن ما فيه من النعم إنما هو من □ فضلاً وإحساناً ليس بشاكر. والذي لا يثني على ربه ولا يحمده بلسانه ويخوض في الباطل ويشغل لسانه بلغو القول ولهو الحديث ليس بشاكر، والذي يعطيه □ من العلم شيئاً ولا يعمل به ولا يعلّمه الناس ليس بشاكر، والذي يعطيه من المال ما يستعين به على طاعته بصرفه في وجوه الخير والبر ويبخل به أو يصرفه في معاصي □ ليس بشاكر".

لهذا دعا □ إلى التخلق بالشكر في كثير من الآيات مثل قوله:

(بَلِّغِ اللّٰهَ فَعَاوِدُ وَكَؤُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ) (الزّمر/ 66).

ومدح □ نبيه إبراهيم لقيامه بواجب الشكر: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّٰهِ حَنِيفًا وَّلَا يَمِشُّ مِمَّنْ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ

كما تفضل □ بعدم عذاب الشاكرين: (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ) (النساء/ 147).

ووعده □ الشاكرين بأن يزيد لهم النعم في الدنيا ويحفظها لهم: (وَلَا يَذُنْ رَجُلٌ رِبًّا كُفْرًا لَّئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (إبراهيم/ 7).

الشكر على نعم □: وشكر الخالق واجب على الإنسان فإن لم يفعل كان بذلك مقترفاً أشنع أنواع الجحود والنكران. ألا ترى أننا ننكر على الشخص الذي لا يسدي الشكر لمن أحسن إليه من البشر فما بالك بمن لا يسدي الشكر لخالقه مصدر كل النعم، ولا يمكن أن نكون مقربين إلى □ من غير شكره، وهذا ما أمر به □ في آيات متعددة قال تعالى: (وَاللَّهُ أَخْبَرَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل/ 78).

(وَأَيَّةٌ لَهُمْ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْتَنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا حَبًّا وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) (يس/ 33-35).

(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْيَمِينَ لِيَتَجَرَّيَ الْفُلُوكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَتَبَتَّغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (الجن/ 12).

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِيَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (القصص/ 71-73).

ولكن الناس أمام هذه النعم وغيرها قليلاً ما يشكرون، قال سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) (يونس/ 60).

ومنفعة الشكر لا تعود على □ فإنَّه لا ينتفع بشكر الشاكرين، ولا يتضرر بكفر الكافرين، وإنَّما منفعة الشكر تعود على الشاكر، فهو يطهر النفوس، ويقربها من □، ويوجه إرادتها إلى الوجهة الصالحة في إنفاق النعم في وجوها المشروعة، ولهذا يقول سبحانه:

(وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّ زَمًّا لِيَنْفُسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) (لقمان/ 12).

أمَّا كفران النعم فيعرِّضها للزوال لأنها تجعل المرء غير مبال بها، ويبدها بدون منفعة، ويتلف ما أنعم □ به عليه من نعم الصحة والعافية، ويسير على غير المنهج الذي رسمه له الخالق فيؤدي به إلى غضب □ والبعد عن رحمته.

والقرآن يخبر بأنَّ خراب الأمم كان سببه كفران النعم وعدم الشكر □، قال سبحانه: (وَمَرْبِ اللَّهِ مَثَلًا قَرِيبَةً كَانَتْ أَمِينَةً مِثْلُ مَثَلِهِ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (النحل/ 112).

وذكر القرآن قصة قوم سبأ وما حلَّ بهم لكفرهم بآية نبع زمزم:

(لَقَدْ كُنَّا أَنْ لَسْنَا فِي مَسْكَانِهِمْ آيَةً جَنَّاتٍ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ * وَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْعٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَافُورَ) (سبأ/ 15-17).

فالشكر من دعائم سعادة الأُمم، والتنكب عنه لا يجلب غير الدمار والخراب. حبذا لو فهمت الشعوب الشكر وعملت به لتحصل على السعادة التي تنشدها وهي عنه غافلة. ►

المصدر: كتاب رُوح الدِّين الإسلامي